حيدر حب الله *

بمناسبة ذكرى استشهاد الشهيدين مطهري (١ مايو – ايار ١٩٧٩) والصدر (١٥ ابريل ١٩٨٠)

محمّد باقر الصدر معالم لمشروع النهضة والهوية

(الصفحات ٢٣- ٣٦)

ملخّص

سبيل النهوض بالأمة هو الهاجس الأول للمفكرين الإسلاميين بعد الغارة على العالم الإسلامي. ومن الطبيعي أن يكون التفكير في استعادة الهوية مقدمة لازمة للنهوض، والشهيد الصدر كرس كل فكره من أجل مشروع النهضة والهوية. توجه السيد الشهيد أولاً إلى نقد مناهج تفكيرنا،ثم إلى النظرة الشمولية للشريعة الإسلامية، والابتعاد عن التجزيئية، وفي خطوة هامة انتقل من النظرية المجردة إلى تقديم المشاريع العملية للحياة، وبعد فالتوجه الإحيائي، وبثّ روح الثقة بالنفس عن طريق الدفاع عن المشروع الإسلامي في الفكروالحياة من العالم البارزة لمشروع السيد الشهيد.

الفكر الإسلامي المعاصر بين سؤال النهضة والهويّة

سؤال النهضة هو السؤال الذي شغل المفكّرين المسلمين منذ أواسط القرن التاسع عشرالميلادي، ليدفعهم للتفكيرفي النهوض بالأمّة الإسلامية بعد تراجعها المرّعلى المستويات الحضارية والفكرية وغيرها.

أما سؤال الهوية، فهو السؤال الذي عاد إلى الواجهة وبقوّة منذ الستينيات والسبعينيات ليبدي لنا الأمة مأزومةً قلقة في وضع لا تحسد عليه.

---

* - مفكروكاتب ورئيس تحريرفصلية نصوص معاصرة .

في سؤال النهضة أمارس النقد للذات، أمارس التفتيش عن أسباب التراجع والتقهقر، أمارس الطروحات الجديدة غيرالمكرورة؛ لأن المكرورة لو كانت مفيدةً اليوم بوضعها الحالي لما كنّا على الحال التي نحن عليها.

أما في سؤال الهوية، فأنا أخاف على نفسي، وأنتقد غيري الذي أحمّله مسؤولية ما يحصل في الواقع الإسلامي الكبير.

السيد الشهيد محمّد باقرالصدر(١٤٠٠هـ) جاءت أعماله كلّها للجواب عن هذين السؤالين؛ فقسم من أعماله يمكننا أن نحسبه على سؤال النهضة، أي هو محاولات نقدية في الداخل الإسلامي ووضع حلول للمشاكل الموجودة في تفكيرنا، وفي واقعنا في حياتنا الاجتماعية والسياسية، وفي رؤانا وقراءتنا. أما القسم الآخرمن جهوده ومحاولاته فكان بهدف الحفاظ على الهوية والدفاع عنها أمام المخاطرالقادمة من الخارج.

ولكي نصف أعمال السيد الصدر، نجده في بعض أعماله منشغلاً بهمّ الهوية، وفي بعضها الآخرمنكبًا على همّ النهضة وقيامة الأمة الإسلامية، وأكبرمشكلة يعاني منها المفكّرالمسلم تكمن في قدرته على التوفيق بين همّ الهوية وهمّ النهضة، لماذا؟

لأنه في همّ النهضة يغلب علينا نقد ذواتنا وتحميل أنفسنا المسؤولية، فنردّد دومًا: نحن تخلّفنا، نحن تراجعنا، نحن نعاني من خطأ ما في تفكيرنا وفي عقلنا الجمعي. أما في همّ الهوية فنتّجه إلى الخارج، أنا أدافع، أضع مربّعًا وأضع هويتي داخل هذا المربع، هويتي الحضارية والإسلامية والمذهبية، أوعلى تيارات أُخرى هويتي القومية وغيرذلك. أنا أقف داخل المربّع وعلى أطرافه وأقوم بالاشتباك مع الأحداث التي تقع.

هنا يكمن السؤال التالي: كيف يستطيع المفكّرالمسلم من جهة أن ينتقد واقعه الداخلي وينتقد نفسه ويملك جرأة ذلك ويحلّ هذه المشكلات الموجودة،

وفي الوقت عينه يدافع عن هذا الواقع أمام الآخرين، أمام الغرباء، أمام الغزو الثقافي، أمام العولمة، أمام المشكلات التي تأتيه من خارج المناخ الجغرافي والاجتماعي الذي يعيشه. إنّ قدرة المفكّرالمسلم على التوازن هنا هي عنصرالنجاح في هذا الموضوع؛ فنحن وجدنا أشخاصًا أفرطوا في انتقاد واقعهم الداخلي حتى ذهبوا إلى الاتجاهات الغربية، وصاروا يتنكّرون لمجتمعهم الإسلامي من شدّة إفراطهم في نقد هذا الواقع، لقد صاروا غرباء عن واقعهم، وصارطابعهم العام انتقاد الحالة الإسلامية والعربية والقومية والاجتماعية الموجودة في داخلنا، وتنزيه الآخرعن أيّ مشكل.

من جهة أُخرى، نجد بعضنا ينزّه نفسه عن أيّ معضل ويحيل مشاكلنا الداخلية على الخارج، فكل مشاكلنا عنده هي من الغرب، أما نحن فلانعاني من أيّة مشكلة، ومن ثم لا يجب علينا إعادة النظرفي أيّ شيء من قضايانا الداخلية: الفكرية والاجتماعية والثقافية وغيرها.

إنّ القدرة على الجمع بين هذين الهمّين هو عنصرنجاح المفكّرالمسلم، وأعتقد أن السيد محمّد باقرالصدرنجح في الجمع المذكورإلى حدّ جيد، فلم يفرط في الدفاع، ولااستغرق في النقد، بل جمع بينهما واستطاع أن يحلّ بعض المشكلات الموجودة ضمن وضعنا الداخلي، وبعض الإشكاليات الموجودة على مستوى الدفاع عن هذا الوضع.

ولكي أفهرس أبرزمعالم النهضة والهوية عند السيد الشهيد الصدرعلى مستوى هذين الخطّين، أستطيع أن أذكرسبع خصائص فكرية تتميزبها مدرسته، قسم من هذه الخصائص يعود إلى الجواب عن سؤال النهضة، وقسم آخر منها يعود إلى الجواب عن سؤال الهوية، قسم منه نقدي، وقسم آخرمنه دفاعي.

١. البُعد المنهجي، إعادة تكوين منهاجيات التفكير

البُعد المنهجي أو منهاجية التفكير، قضية خضعت لتطوّرفكري في حياة

السيد الصدر، فقد اعتقد الصدرأن طريقة تفكيرنا في معالجة الأُمورتعاني من مشكلة المنهج الفكري نفسه، وعلينا أن نصلح هذه المشكلة ونسدّ هذه الثغرة، السيد الصدرلم يقل: إنّ هذا المنهج الفكري الذي نحمله خاطئ بأكمله، إلاأنه اعتقد بأنّ فيه بعض الثغرات الخاطئة وعلينا أن نسدّها، لقد اعتقد أنّ المنطق الأرسطي لا يستطيع أن يجيب عن كلّ مشاكلنا اليوم، وربما إعمال المنطق الأرسطي في الدراسات الإنسانية وفي العلوم الاجتماعية يصيب هذه العلوم نفسها ببعض المشاكل، لقد اعتقد الصدربأن المنطق الأرسطي أوالفلسفة العقلية الصرفة غيرقادرة على أن تحفظ لنا هويتنا، وغيرقادرة على أن تسدّ الثغرات الموجودة في واقعنا؛ فاتجه لإعادة النظرفي المنهج الفكري الذي نتّبعه، فلم يعارض المنطق الأرسطي ـ خلافًا لما يتصوّره بعضنا من أنه ضدّ المنطق الأرسطي، فهذا الكلام غير صحيح ـ وإنما اعتقد بأنّ بالإمكان أن نؤسّس مزدوجًا منطقيًا، أي أن نستفيد من أكثرمن منهج منطقي في دراستنا الإسلامية، وأن لا نبقي هذه الدراسات حكرًا على منهج منطقي واحد، فإذا نوّعنا المناهج المنطقية ومناهج التفكيرفي الدراسات الإسلامية والدينية فإنّنا سوف نحصل على ثروة إضافية، وستتراكم أمامنا المزيد من المعلومات والمكتشفات؛ من هنا، اتجه الشهيد الصدرإلى البحث عن منطق الاستقراء وحساب الاحتمال، للكشف عن آليات جديدة لدراسة علومنا الإسلامية.

لا أريد هنا أن أبحث في كلّ نظرية من نظرياته؛ لكن باختصارنشيرإلى أنّ الصدرطبّق منطق الاحتمال ومنهم الاستقراء في علم الكلام في كتاب موجز *أُصول الدين*، وكذلك في الاستدلال على وجود الله تبارك وتعالى كما سوف نرى، وطبّقه أيضًا في أُصول الفقه؛ في الإجماع والشهرة، كما نشّطه في علم الرجال والحديث لدى دراسته شخصية بعض الرواة الذين قيل بأنهم لا يروون ولا يرسلون إلا عن ثقة. لقد استخدم الصدرمنطقًا جديدًا فقدّم لنا ثراءً جديدًا في نظامنا المعرفي، فلم يقل بأنّ المنطق الأرسطي غيرقادرعلى أن يقدّم لنا الخيرات

في المجال الفكري، لكنّه اعتقد أنّ بإمكاننا أن ننوّع مناهجنا المنطقية؛ فأيّ مشكلة في أن يكون عندنا أكثرمن منهج منطقي؟! أيّ مشكلة في أن تستفيد دراستنا الإسلامية من أكثرمن عُدّة معرفيّة؟! لا توجد مشكلة إطلاقًا، بل تجربة السيد الصدرأثبتت أنّ بإمكاننا خدمة الدين وسدّ الكثيرمن الثغرات عبرهذا التنوّع المنهجي.

إذن، أوّل قضية عالجها السيد الشهيد هي قضية المنهج الفكري وأسلوب التفكيرالذي نستخدمه، كان يريد الجواب عن السؤال التالي: أيّ أسلوب يفترض أن نستخدم في حلّ مشكلاتنا الفكرية التي نعاني منها؟ هل هناك ضرورة أن نحصرأنفسنا داخل مربّع منطقي واحد أم بالإمكان أن ننفتح على مدارس منطقية جديدة، وأن نتحرّرمن أن نكون محكومين لمنطق واحد، ومن ثم نثري فكرنا الديني ونثري معلوماتنا الإسلامية؟!

لقد اعتقد الصدرما كان يراه محمّد إقبال .وبالمناسبة موضوع المنطق الاحتمالي الاستقرائي كان قد أشارإليه من قبلُ محمّد إقبال في كتابه «تجديد الفكرالديني» طبعًا مع فارق بسيط، وهوأن إقبال كان يحمّل المنطق الأرسطي مسؤولية تخلّفنا وهذا ما لانراه عند السيد الصدرفي حدود اطّلاعي .من ضرورة الانفتاح على مناهج المنطق الاستقرائي.

هذا المعلم والخاصّية في فكرالسيد الصدرتحاول أن تجيب عن بعض أسئلة النهضة، وفي الوقت نفسه تخدم قضايانا الدينية الداخلية.

٢. الكلّيانية والتعالي النظري

الكلّيانية والنظرانية ـ إذا جازالتعبيرـ سمة أخرى من سمات التفكيرعند الصدر؛ فنحن نرى أنّ الصدرانتقد في دراساته ما سمّاه بالفقه الفردي الانكماشي، فالفقيه اليوم ـ مثلاً ـ في الاتجاهات الفقهية المدرسية يعالج المسألة الجزئية الفلانية، ويعالج المسألة الجزئية الثانية، والثالثة والرابعة، فهو دائمًا محكوم بمسألة تلو مسألة، ينتقل من واحدة إلى أُخرى، كذاك الذي ينتقل من جزيرة إلى

جزيرة عبرجسر، ولا ينتقل من جزيرة إلى أخرى عبرالطائرة؛ لهذا فهو لا يطلّ على المشهد من الأعلى؛ ليرى كلّ هذه الجزروالجسور، بل يتحرّك من جزيرة إلى أُخرى، فينتهي من مسألة ليبدأ بأختها، فهو ينظروهو على الأرض، وهذا هو الفقه التجزيئي الفردي الذي عبّرعنه السيد الصدربالفقه الانكماشي.

لقد لاحظ الصدرأنّ الأمة الإسلامية في زمنه ليست بحاجة -فقط- إلى حلّ القضايا الجزئية التفصيلية، بل بحاجة أيضًا إلى تكوين نظريات، أي يجب أن يتحوّل عقلُنا من عقل تجزيئي يلاحظ القضايا الفكرية التفصيلية إلى عقل متعالٍ مشرف من الأعلى، كما يقول جلال الدين الرومي في شعره: (المثنوي،الكتاب الثالث، البيت ٣٧٥٥)

عندما تجد همًّا احتضنه بعشق وانظرمن أعلى الربوة إلى دمشق

أي لا تنظرإلى دمشق وأنت على بابها، فربما لا تجد شيئًا يعجبك، وربما لا يكون المنظرخلّابًا، لكن اصعد إلى التلّ و إلى الربوة وانظرإلى دمشق منها فستجدها مدينةً جميلة.

أراد السيد الشهيد أن يخرجنا والفكرالإسلامي من مأزق التجزيئية، من مأزق التنقّل من مفردة إلى مفردة، وعدم القدرة على إيجاد حلول كبرى، والعجزعن ابتكارنظريات عظمى قادرة على النهوض بالمجتمع وتحريكه، فقد تكون هناك جزيئيات صغيرة يمكن حلّها، لكننا لا نستطيع أن ننظم حزمة الآلاف من هذه الجزيئيات الصغيرة التي تتحرك ضمن هذا المربع أو تلك الدائرة، لهذا نكون بحاجة للانتقال بالعقل المسلم من مرحلة التفكيرالتجزيئي الفردي الصغير -وهي مرحلة مشكورة وضرورية كما يقول السيد الشهيد، ولا غنى عنها بوصفها مرحلةً أولى- إلى مرحلة العقل المشرف المتعالي على كلّ التفاصيل الجزئية الصغيرة، ليكوّن منها صورةً ورسمًا كاملاً، أي من مرحلة لملمة أجزاء الفسيفساء إلى مرحلة تكوين الصورة من خلالها.

هذا هو الذي دفع السيد الصدرإلى أن يفكّربالفقه المجتمعي وبفقه النظرية،

لقد لاحظ أنني ربما أبقى أدرس كتاب المكاسب وأبحاثه عشرسنوات أو عشرين سنة، وأدرّسها وأبحثها وأجتهد فيها، لكن مع ذلك قد لاأقدرعلى أن أقدّم فقه نظرية اقتصادية؛ لأن القضية ليست فقط في أن تجتهد في الجزئيات، و إنما أن تقدربعد اجتهادك فيها على أن تكوّن صورة أكبرشاملة؛ فالفقيه المسلم والمفكّر المسلم لم تعد مشكلته مشكلة أفراد، و إنما مشكلة المجتمع بأكمله، صارت مشكلته مشكلة الأمة بأكملها، فيجب أن نفكّرعلى مستوى حلّ مشكلة أمّة وليس على مستوى حلّ مشكلة أفراد، هذا التفكيرعلى مستوى حلّ مشكلة أمة يستدعي الانتقال بالعقل من المرحلة الفردية التجزيئية الصغيرة إلى المرحلة الشاملة النظرية الكلية الكبيرة، وهذا بالضبط ما فعله السيد الشهيد؛ فكأنه شعربأنّ مشكلتنا في أننا نبقى في هذا الجزيء الصغيرالمنتقل من باب فقهي إلى باب فقهي، دون أن نستطيع أن نبلوررؤية كلّية للحياة. وهذه نقطة أساسية أراد السيد الشهيد من خلالها أن ينقذ هذا العقل المسلم من الغرق في التفاصيل، لكي يجعله في رحابة الرؤى الكلية والقواعد العامّة، لكي تستطيع علومنا الإسلامية أن تدير المجتمع كما تديرالفرد، أن تديرالأمة كما تديرالآحاد، فبعقلية إدارة فرد لا يمكن إدارة أمة، ولا دولة.

هذا معلم آخرأيضًا أساسيّ ومهمّ للغاية سعى له السيد الصدرلتكوين فقه مجتمعي، وفقه دولة، وفقه اقتصادي، وفقه سياسي، لالتكوين فقه فردي قد يكون له علاقة هنا بالسياسة أو علاقة هناك بالاقتصاد أو علاقة ثالثة له بالحياة الاجتماعية.

٣. الانتقال من الفرضيّة إلى العملانية

نقصد من العملانيّة أو البعد العملي، الانتقال بالفكرالديني من الدراسات النظرية البحتة إلى الدراسات العملية، وهذه أيضًا نقطة أساسية؛ لأن أكثر المفكرين النهضويين منذ القرن التاسع عشرإلى يومنا هذا يعيبون على فكرنا الإسلامي ببعض مفاصله خلال عصورالانحطاط، أنها أغرقت في التجريد

والاستغراق خارج نطاق الواقع، كأن المفكّر المسلم جلس في زاوية من زوايا بيته وأخذ يفترض مشكلةً ربما لا وجود لها في الخارج، ثم يبدأ بحلّها، فلا المشكلة لها وجود ولا الحلّ نحن بحاجة إليه الآن.

سأعطي مثالاً واقعيًّا معاصرًا، توجد بعض الدراسات الفقهية المتعلّقة بالبنك يسعى كتّابها لدراسة معاملة بنكية ومصرفية ما، فيفرضون لها -مثلاً- سبع فرضيات ويبدؤون بحلّ هذه الفرضيات، ولو أتعبوا أنفسهم قليلاً وذهبوا إلى البنك لما وجدوا سوى فرضية واحدة اليوم من هذه الفرضيات المخترعة؛ فلماذا أشغل نفسي بسبع فرضيات لا وجود لها وأصرف جهدًا من طاقتي ومن إمكاناتي لحلّ مشكلة لا وجود لها في واقع المسلمين اليوم؟ فلو وجدت غدًا فسيأتي جيل الفقهاء الذي يعالجها.

وهذا ما يشير إليه الإمام الخميني في بعض أبحاثه، حينما ينتقد الفكرة الشائعة التي تقول بأننا نبحث بعض المسائل في أُصول الفقه لشحذ الذهن، أفهل نضبت المشكلات العملية التي نشحذ بها ذهننا حتى نذهب إلى مشكلات لا وجود لها؟!

هنا نجد المفكّر المسلم -مثل السيد الشهيد محمّد باقر الصدر- يريد أن ينتقل بالعقل المسلم من هذه المرحلة التجريدية التي يحلّق فيها فوق الأرض ليحلّ فيها مشكلات لا وجود لها، إلى مرحلة عملية. فماذا فعل؟

حتى أُصول الدين، حتى علم الكلام، انظروا كيف كان السيد الشهيد يسعى لإدخاله في التركيب الاجتماعي، وفي الحياة الاجتماعية، فالنظرة الاجتماعية إلى أُصول الدين التي كتبها السيد الصدر، والنظرة الاجتماعية إلى العبادات التي تحدّث عنها، تمثل توظيفًا لهذا الفكر الإسلامي في حياتنا العملية، وعدم البقاء والغرور بمجرد التفوّق الفكري والتحليلي، و إنما النزول إلى أرض الواقع لحلّ المشكلات.

من هذه النقطة بالذات، ننظر إلى السيد الشهيد في اهتمامه بالأولويات، وهو ما كان تحدّث عنه الشهيد مرتضى مطهري أيضًا، فنحن نعاني من خلل في ميزان

تنظيم الأولويات، لقد مثّل المطهري لذلك بمثال حين قال بأن هناك من يذهب لزيارة الإمام الحسين(ع)، وعلى الحدود العراقية الإيرانية يكذب لكي يُفسح له في المجال لعبورالحدود، إنه يرتكب الحرام لأجل المستحب، هنا يختلّ ميزان الأولويات، وهو يشبه إلى حدّ كبيرميزان الحرارة الذي إذا اختلّ انهارت كلّ المعاييرفي الجسم، هنا يصبح الإنسان مستعدًا لشغل نفسه سنين في موضوعات لا قيمة لها ويترك موضوعات ضرورية جدًا لاعتبارات وهمية كاسدة.

لهذا جاء المفكّرالمسلم ـمثل السيد الصدرـوأخذ أصول الدين وعلم الكلام، ذلك العلم الذي أخذ طابعه التجريدي النظري، وأراد أن يقحمه في حياتنا الاجتماعية. انظروا كيف حاول أن يدخله في حياتنا الميدانية في مقدّمة كتاب فلسفتنا حين قال بأن الرؤيا الكونية بالنسبة إلينا هي معيارنستطيع من خلاله أن نغيّرواقع حياتنا الاجتماعي والسياسي والشخصي..

هذا النوع من التفكيريمنحنا قدرة تنشيط القضايا الأكثرتجريديةً في حياتنا العملية، إنه الانتقال بالعلوم التجريدية لتتحوّل إلى علوم واقعية عملية تستطيع تغيير حال المسلمين نحو الأفضل.

٤ـ الواقعيّة أو الرحلة من الواقع إلى النص إلى الواقع

المثال الأبرزالذي أريد أن استخدمه هنا في البعد الواقعي هو التفسيرالموضوعي، فالسيد محمّد باقرالصدرأراد أن يغيّرطريقة رجوعنا إلى النصوص، وأن يلفت نظرنا إلى آلية جديدة، فنحن ندرس في العلوم الإسلامية حينما نصل إلى مرحلة معينة بابًا فقهيًا، وننتقي مسألة فقهية نبحث فيها، وهنا أجد أنّ أمامي نصوصًا قرآنية وحديثية، وأجد أمامي كلمات العلماء والفقهاء عبرالزمن، أجد أمامي كلّ هذا الزخم من التراث، ثم أبدأ بتحليله، فأنا من البداية إلى النهاية مع هذه النصوص، و إذا أردنا رسمًا لهذا المشهد فنحن نرسم سهمًا دائريًا من النص إلى النص.

يقول السيد الصدربأنني لا أذهب إلى النص، ولماذا أذهب إليه؟! فلنذهب إلى الواقع أوّلاً، أي إلى واقع الحياة الإنسانية، و إلى هموم الإنسان المسلم المعاصر

ومشكلاته وأزماته وعناصر تخلّفه وسبب تردّي حاله، ثم آخذ الأسئلة من هذا الوضع القائم، فأنا في البداية واقعيٌّ، أي أنطلق من الواقع وأبدأ به، وآخذ الأسئلة والهموم منه، ثم أذهب إلى النص، وأجثو على ركبتي أمام الكتاب والسنّة لأقول لهما: ما الذي يمكنني أن أستفيده منكما في حلّ المشكلات الواقعية؟ أنا أبدأ من الواقع إلى النص، ثم بعد أن أحصل على الجواب من النصّ، أبدأ رحلة العودة من النص إلى الواقع، فأحمل ما أخذته من هذا النص المقدّس، وأذهب إلى الواقع لإصلاحه وفق هذه القيم الدينية التي أعطاني إياها النص.

إذن، حركتي من الواقع إلى النص، ثم من النص إلى الواقع، وليست حركتي من النص إلى النص، وكأن الواقع لا قيمة له عندي، مثل ما يسمّى بفقه الأرأيتيين، وهي جماعة ظهرت في القرن الثاني الهجري أطلق عليها في حينه الأرأيتيون، وفي بعض الروايات عن أهل البيت ما يشير إليهم، وقد سمّوا بالأرأيتيين لأنهم كانوا عندما يطرحون مسألةً فقهية يقولون: أرأيت لو كان كذا وكذا فما هو الحكم؟ فكانوا يستخدمون هذا التعبير فسمّوا به.

أنا أريد أن أنتقل من «أرأيت لو كان كذا» إلى «أرأيت كيف حصل هذا، فأعطني الجواب». هذا هو المشروع في التفسير الموضوعي وغيره من مشاريع الصدر، أي النظر إلى مشكلات واقعنا المعاصر بكل تفاصيله، ثم أخذ هذه المشكلات وحملها لتوجيهها أسئلةً إلى النصّ لأخذ الجواب منه، ثم العودة في رحلة الرجعة إلى الواقع الذي يصلحه في ضوء النص.

إذن، هذا هو البعد الواقعي في فكر السيد الصدر، أي الانطلاق من الواقع إلى النص والعودة من النص إلى الواقع، فالواقع تكرّر مرتين في البداية وفي النهاية، هو البداية وهو النهاية، لكنه ليس الحكم، بل الحكم هو النص في القضايا الدينية.

إننا نعتقد أن فكرة التفسير الموضوعي بهذه الطريقة تجمع -من جهة أولى- بين الكلّية النظرانية، أي الخاصية الثانية؛ لأنها تريد أن تعطي رؤية كلّية لموضوع قرآني ما، وبين الواقعية؛ لأن الموضوعية في كلمة «التفسير الموضوعي» كما

يستوحى من بعض تعابيرالسيد الشهيد يقصد منها ما يقابل الذاتية، أي الواقع الخارجي، بل هو يصرّح أنني أبدأ من الواقع، ثم آخذ أسئلته إلى النص القرآني.

وعليه، أراد السيد الشهيد أن يحلّ مشكلة «لا واقعية الفكر» التي ابتلى بها المفكّرالمسلم عدّة قرون من الزمن، لينقله إلى مرحلة الواقعية ليستطيع من خلال ذلك إصلاح حال هذه الأمة ورفع مستواها الفكري والاجتماعي والإيماني.

٥. الإحيائية وإعادة استحضار الغائب

الإحيائية خاصيةٌ يشترك فيها كثيرمن المفكّرين غيرالسيد الشهيد الصدر منذ القرن التاسع عشر، حيث يعتقد الكثيرمن العلماء النهضويين الكبارأن واحدة من أهم مشاكل هذه الأمة أن بعض فرائضها وقيمها غائبة عن حياتها؛ لذلك أطلقوا ما يسمّى بالفرائض الغائبة، أي تلك الفرائض والقيم التي غفل عنها المسلمون، لقد شعرهؤلاء المفكّرون النهضويون بأن هناك قيمًا وأفكارًا ونظريات في داخل هذا التراث الإسلامي مشكلة المشاكل فيها أنها ميتة، فأتوا لإحيائها.

إذا قرأنا تجربة السيد الصدرسنجد عنصرالإحياء واضحًا، مثل إحياء فكرة الدولة الإسلامية، و إحياء مفاهيم تطبيق الشريعة، و إحياء مقولة الإسلام يقود الحياة، و إحياء مفهوم الجهاد، و إحياء مفهوم الأمربالمعروف والنهي عن المنكر، و إحياء مفاهيم العمل النسوي، إلى غيرها مما كتب فيه السيد الشهيد أو تحدّث عنه، إنها سلسلة من المفاهيم النهضوية الكبرى القادرة على تغييرواقعنا وسدّ الكثيرمن الثغرات، وقد أسهم الصدرفي إحياء العديد من هذه المفاهيم واشتغل عليها وقدّم فيها الكثير، وكلّكم يعرف ماذا قدّم في الفقه السياسي، وفي الفقه الاجتماعي وغيرذلك.

٦. الدفاعية أو مشروع المانعة الحضاريّة

في الدفاعيّة لا يفرط المفكّرالمسلم المتوازن في نقد الداخل، تمامًا كما لا يفرط في نقد الخارج ويعفي نفسه من المسؤولية. السيد الشهيد رغم كلّ هذه

المحاولات النقدية لمناهج التفكير عندنا؛ لتجريديتنا وعدم واقعيتنا، لعدم كوننا عمليين، لابتعادنا عن فقه النظرية والفكر النظري عمومًا.. رغم ذلك كلّه كان دفاعيًا من بداية حياته إلى نهايتها، من «فلسفتنا» في دفاعه عن الفكر الإسلامي في مقابل الاتجاهات الماركسية والمادية الديالكتيكية والتاريخية، إلى «الأسس المنطقية للاستقراء» الذي جمع فيه بين نقد مناهجنا المنطقية وبين الإتيان بمناهج منطقية جديدة قادرة أيضًا على الدفاع عن قيمنا ومفاهيمنا، ولذلك حينما نصل إلى الصفحتين الأخيرتين من كتاب «الأسس المنطقية للاستقراء» نعرف أن كلّ هذا الجهد المنطقي الضخم أريد له أن يخدم الدفاع عن قضية «الله سبحانه وتعالى»، عن قضية الوجود الإلهي، وعن قضية وجود ما فوق المادّة وما فوق الطبيعة، في مقابل اتجاهات المادية التي كانت تغزو العالم الإسلامي في تلك الفترة.

هنا يظهر إحساس المفكّر المسلم بأنه مسؤول عن الدفاع عن أمّته وقضاياه وفكره ودينه، وهذه من العناصر الأساسية التي امتاز بها السيد الشهيد الصدر، لا أقول: امتاز بمعنى أن الآخرين لم يمتازوا، أنا لا أشرح امتيازات منحصرة بفرد كما يقولون، ولكن امتيازات أستطيع أن أقول: اختلفت شدّة وضعفًا بين المفكّرين النهضويين.

إذن، جمع السيد الصدر بين الدفاع عن قضايا الأمّة والفكر الديني وبين نقد بعض المعالم الخاطئة والكشف عن بعض الثغرات السلبية في الفكر الديني، وهذا ما يشكّل معلم التوازن في الجواب عن سؤالي: النهضة والهوية معًا.

٧. النقديّة وهواجس تفتيت التكلّس الداخلي

هناك علماء معروفون بأنهم نقّادون، لا أريد أن أعطي أمثلة حتى لا يصير النقاش فيها، بعضهم يقول: الشيخ محمّد جواد مغنية رجل مسكون بهاجس النقد، فأوّل كتاب ألّفه كان نقد الواقع الاجتماعي في جبل عامل، وهذا يعني تبلور حسّه النقدي في مرحلة مبكرة، وكما هناك مفكرون دائمًا نجد النقد في كتبهم، كذلك هناك آخرون يتجنبون هذا النقد الداخلي، فمثلاً بعض الذين

يكتبون في التراجم إذا وصلوا إلى عيب لشخص ما يريدون ترجمته يحاولون أن يقولوا: لا نثير مشكلة مع فلان، أولماذا أذكرهذا؟ ربما فيه إشكال شرعي!!

السيد الصدرفي اللحظة التي كان فيها في قمّة الدفاعية ـ كما أشرنا ـ كان أيضًا ينتقد واقعنا، فتجربته يعرفها الجميع أكثرمنّي، تجربته في نقد واقعنا الحوزوي، وفي نقد مناهج التعليم، وتجربته في نقد بعض الظواهرالاجتماعية الموجودة في حياتنا. هذه العقلية النقدية التي كان يحملها إزاء بعض الظواهر تتجلّى في أكثرمن كتاب ومحاولة، ولكنه يمتازعن الكثيربأن هذا النقد الذي كان يمارسه كان هادئًا، وكان يحتاج إلى نفس طويل؛ لأن طريقة النقد التي امتازبها تعطينا إيحاءً واضحًا بأنه كان مستعدًّا لنفس طويل لكي يحقّق الغاية من هذا النقد، في مقابل بعض العلماء الذين ينتقدون بطريقة أشدّ وأصرح، ويعتقدون بأننا بحاجة إلى أن نقفزلكي نصل إلى نتيجة النقد، أما السيد الشهيد فظروفه التاريخية التي كان يعيشها في العلاقة مع النظام الحاكم في العراق في تلك الفترة، والأزمة التي كانت تعيشها الأمة المؤمنة والحالة الإسلامية بشكل عام في مواجهة المدّ الأحمر. ربما هذا كلّه دفعه إلى أن يختارالمراحلية البعيدة الطويلة النفس في معالجة النقد الداخلي لقضايانا، سواء الحوزوية الداخلية أوالاجتماعية الخاصّة.

أين نحن من مشروع الصدر؟! هل توقفت العقلانية الدينية المحدثة؟!

أعتقد أن هذه السمات السبع الموجودة في فكرالسيد الشهيد محمّد باقر الصدر: المنهجية، والكلّيانيّة، والعملانية، والواقعية، والدفاعية، والإحيائية، والنقدية.. لو قرأناها بإمعان فسوف نتمكّن من الإجابة عن هذا السؤال: هل حقًا ساهم السيد الصدرفي تقديم جواب الفكرالديني عن سؤالي: النهضة والهوية أم لم يقدرعلى ذلك؟

أعتقد أن الجواب صارأكثروضوحًا في ذهننا، فقد قدّم مساهمات كبيرة في هذا المجال، لكن ليس المهم أن نتعرّف عليها بقدرما المهم أن نكملها. ويحلو لي أن آخذ في نهاية هذه الكلمة هذا التشبيه أوالمثال الذي ذكره بعض

المفكّرين لنتعلّم منه، وقد كرّرته عدة مرات، يقول المثال: إن هناك أبًا له أولاد وعنده مصنع، وهذا المصنع فيه عمّال، يقوم بإعطائهم مبلغًا من الأجر الشهري، في السنة الأولى زاد لهم عشرة في المائة، وفي السنة الثانية زاد عشرةً أُخرى، وفي الثالثة زاد عشرةً ثالثة على أجورهم، ثم توفي الوالد بعد عشر سنوات وورث الأولاد المصنع، وانقسموا إلى قسمين: فريق نصيّ أو حرفي، وآخر منهجي موضوعي.

فالفريق الأوّل يقول: والدنا أعطى قبل وفاته مبلغًا معيّنًا من الأجر، إذًا فنحن نعطي عين هذا المبلغ إلى الأبد، فهذه هي سياستنا إلى يوم الدين؛ لأننا نتعبّد بما كان يفعله والدنا، ولا نعرف هل كان سيزيد عن السنة الماضية في السنين اللاحقة أو لا؟

أما الفريق الثاني فيقول: لا، ليس هذا اتّباعًا لسيرة والدنا وسنّته، و إنما المطلوب أن نأخذ من مسيرة تجربته مع هؤلاء العمال وظيفتَنا وحركتنا، فما هي المسيرة؟ كان يزيد عشرةً في المائة كلّ عام، فنستمر في مشروعه.

هذا ما نحتاجه اليوم في تعاملنا مع مفكّرين كبار مثل السيد محمّد باقر الصدر الذي قدّم ما احتاجت الأمة إلى تقديمه قدر مُكنته وجزاه الله خيرًا عن الإسلام والمسلمين، أما الجيل الثاني والثالث، أمّا نحن اليوم، جيل التسعينيات والألفين، وجيل الألفين وعشرة، وجيل الألفين وعشرين... هذه الأجيال القادمة هل تريد أن تقف وتشتغل ـ فقط ـ بالشرح والتعليق، أم تريد أن تستمرّ وتواصل المسيرة؟! إذا وقفت فقد فعلت عكس ما كان يريده السيد الشهيد الصدر؛ لأنه لو كان يفكّر بطريقة الوقوف لما تقدّم على الذين سبقوه، فما يريده منّا الصدر اليوم هو أن نستمرّ بأخذ طريقته في العمل، وليس نتائج عمله التي توصّل إليها فقط. هذه الطريقة إذا أخذناها وهذه الشخصية إذا تمثلناها وتماهينا معها واستمرّينا في مشروعها بإمكاننا أن نقدّم المزيد المزيد، فكلّ جيل يقدّم ما يجب عليه أن يقدّم، وينتقد بالنقد الموضوعي البنّاء الجيل السابق ولا يقدّسه، وهكذا يكون حوار الأجيال وتقدّمها جيلاً بعد جيل، إلى أن ترجع هذه الأمة الإسلامية إلى حالها الطبيعي، و إلى مواقع عزتها وكرامتها، إن شاء الله تعالى.